

ثم جاء العصر العباسي فتوزعت المناصب وكثرت الإمارات والوزارات، فانصرف الشعراء إلى هؤلاء الوجهاء والسادة يمدحون طالبين قضاء الحاجة وبلوغ الأرب. فبشّار حين مدح وزير المهديّ اعترف له بأنّ انتظاره لشوابه قد طال. واضطرّ الشعراء إلى أن يرفعوا الوزراء والوجهاء والأمراء إلى مرتبة الخلفاء والملوك وإلى أن يسبغوا عليهم أثناباً فضفاضة، حتى اختلط على الناقد التفريق بين ما قيل في الخلفاء وغير الخلفاء، لتقارب الصور والصيغ والأوصاف. وقد أصبح المديح حرفة ومهنة يبذل صاحبها ماء وجهه في سبيل المال. وغدا الأعرّاء من الشعراء يأنفون من نظم الشعر ممّا دفع بأبي فراس الحمداني إلى نفي صفة الشاعر عن نفسه حين قال:

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَامْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي فَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ
لقد أسقط المديح الشعر عن عرشه وأسقط معه قائله بعد أن كان للشاعر المقام الرفيع حيث كانت القبائل تهنيء بعضها بعضاً بولادة الشاعر وتقوم وتقعّد لقوله، وتفرش الولاثم لقدمه وتقيم الأفراح لانتقاله ويحلّ من الملوك محلّ النديم والصديق.

ثم جاء أبو تمام فقدّس البطولة في أروع صورها على الطريقة التقليدية، فأجاد وابتكر حتى ليصحّ القول إنّ مدائحه لو انتظمت في كتاب واحد لجمعت في وصف المفاخر والأمجاد ملحمة تاريخية من أروع ما كتب في الشعر الملحمي. قال في ممدوحه وقد أشرك الناس معه في مديحه:

كريمٌ متى أمدحهُ، أمدحه والورى معي، ومتى ما لمتُهُ، لمتُهُ وحدي
أو يصف ممدوحه قائلاً:

إقدامٌ «عمرو»، في سماحة «حاتم» في حلم «أحنف»، في ذكاء «إياس»^(١)

(١) هو عمرو بن معد يكرب، وإياس هو ابن معاوية، كان قاضياً بالبصرة.